

وبينهم الا اقوالاً مقتضبة مختزلة يستثيرون بها إحتهم عاينا ولو نقلوا اليهم كتابة من يعتد بكلامهم ويوثق بمعرفتهم للاسلام لقبيله المنصفون وزال سوء التفاهم الذي نمتناه كما نمتناه هانوتو وغيره من العقلاء او أشد تمناً وربما كان فيه الخير للفرقتين فعسى ان نصل الى هذه الامنية بالجرائد الشرقية التي تنشر باللغات الاوربية كماؤيد القرنسوى في مصر ومحمدان ومسلم كرونكل في الهند وغيرها من الجرائد المسحية المنصفة والله يجزى المحسنين

باب التربية والتعليم

﴿ باب الولد من كتاب أميل القرن التاسع عشر ﴾

(١٠) من اراسم الى هيلانه في ٣ يونيه - ١٨٥

ان معظم من كتبوا في علم التربية يغالون باصول علم الاخلاق ويرفعون من شأنها وانا مثلهم اعتقد ان المواعظ الحسنة وقواعد التهذيب المفيدة قد تبعث العزائم في بعض الاحوال على القيام بصالح الاعمال ولكني لا اعتقد ان ما يلقيه الناشئون منها من افواه معلمهم في دروسهم يغير طباعهم تغييراً حقيقياً وهيئات ان اعول عليها في ذلك فاننا نرى كل يوم في المجتمع الانساني انساناً من الظرفاء الاكياس حفاة غلف القلوب على أنهم لم يحرموا من النصائح العامة الداعية الى التحاب والتراحم المرغبة في لذة الاتصاف بهما فما من فاسق او شرير او بخيل الا وقد سمع الف مرة من السنة الوعاظ قولهم «كن حكيماً مهذباً تكن عزيزاً مغتبطاً» (١) «لا تفعل بفيرك

(١) الحكمة واردة في امثال سليمان عليه السلام في التوراة بهذا النص وهو

« ما لا ترضى ان يفعله بك » (١) « لا تجعل لحطام الدنيا حظاً من قلبك » (٢) الى غير ذلك من النصائح والحكم .

الانجيل كله مواعظ راثقة وامثال شائقة فليت شعري من ذا الذي يراعيها . هل تجدون كثيراً من الاغنياء انفقوا جميع اموالهم على الفقراء بعد سماعهم آية « ان دخول الجمل في سم الخياط ايسر من دخول الفني في ملكوت السموات » (٣) هل تلاقين ولو في القسيسين انفسهم عدداً كبيراً ممن يفضلون عبادة الله (سبحانه) على عبادة الدينار والدرهم ؟ هل يرضى اوائل الناس او الذين يعتبرون انفسهم كذلك ان ياملوا معاملة الآخر ؟ هل يسهل على الحكام ان يتقبلوا محكومين ؟ كلا ! اننا نرى علماء الدين ينالطون في فهم نصوص الكتاب مخادعين وجدانهم غاشين ضمائرهم وما اكثر ما يؤولونه منها تخلصاً من قضائهم عليها وفراراً من عواقب الاخذ بصريحها

جاء المسيح يدعو الى السلام في كل قول من اقواله فهل رأيت الممالك اصبحت اقل قتالاً ؛ ندب الى التآخي بقوله الجليل كلكم اخوان » (٤) فهل

« الرجل الحكيم في عنده » (١) نص الكتاب المقدس في هذا المعنى هو : « وكما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا انتم ايضاً بهم هكذا » راجع من انجيل لوقا الاصحاح السادس والعدد ٣١ (٢) نص الكتاب في هذا المعنى هو : « لا تكزوا لكم كنوزاً على الارض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون بل اكزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ راجع العدد ١٦ و ١٩ و ٢١ من الاصحاح السادس من انجيل متى (٣) راجع العدد ٢٤ من الاصحاح ١٩ من انجيل متى (٤) نص ماورد في الكتاب المقدس في هذا المعنى هو « واما انتم فلا تدعوا سيدي لان ملككم واحد هو المسيح واتم جميعاً اخوة » راجع الاصحاح ٢٣ والعدد ٨ من انجيل متى

هدم هذا القول دعائم الاستعباد ومحا من النفوس ميلها الى التسلط ؟ توعد من يصاب سيفه بغيّاً وعدواناً بالهلاك فقال ما منناه « من سل سيف البنى به قتل » (١) فهل ردع هذا الوعيد من كان يهدم الحول والقوة من انتهاك حرمة القانون بالبنى والفساد في الارض . قال « من اخذ قميصك فاعطه رداءك » (٢) فلو ان احداً منا معشر الفرنسيين المتشددين في التمسك بالدين اتبع هذا الامر وجرى على نصه حرفياً لسجن في شارنتون (٣) خصوصاً اذا كان له من اقاربه وارثون

لم يختص المسيحيون بهذه المواقف الحسنة فان لليهود ايضاً والصينيين والفرس كتباً فيها حكمة بالغة وكلم نابغة ولكنهم لم يضيروا بها احسن منا حالاً فانه لو كان يكفي في تحسين احوال الناس وتهذيب نفوسهم وجود كتاب مفيد في علم الاخلاق لكانت الدنيا قد بلغت غاية الكمال من زمن طويل لانها والحمد لله لم تخل من علماء الاخلاق يوماً على أننا لانسمع في جميع ارجائها الا أصوات آلام المنكوبين والمكروبين وتحريق الارم من المقهورين المتغيظين .

أرى انه لا ارتباط بين مذهب المرء وبين عمله غالباً الا في الخيال

(١) عبارة الكتاب في هذا المعنى هي : « فقال يسوع رد سيفك الى مكانه لان كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهاكون » راجع الاصحاح ٢٦ والعدد ٥٢ من انجيل متى (٢) عبارة الكتاب هي : « ومن اخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك ايضاً » راجع الاصحاح ٦ والعدد ٤٩ من انجيل متى (٣) شارنتون اسم لقريتين من قرى فرنسا احدها تدعى شارنتون لويون وهي اشهر قرية في اقليم السين بقضاء مسو واقعة على نهر مارن والثانية تسمى شارنتون سور لوشير وهي اشهر قرية في اقليم شير بقضاء سانت انديمونت ووند يظهر ان احدها فيها سجن للمجانين

والوهم فلو ان الخير كله والشر كله كان كل منهما بمنزل عن الآخر في مجرى الحياة وسياق اعمالها لسهل على الناس الحكم فيما اختلفوا فيه من آرائهم ومذاهبهم ولا تقطع من بينهم سبب الخلاف باسرع ما يكون ولكن هيات ان يكون الأمر كذلك وقد علمت انه لا يعمل منهم بعلمه الا الشذاذ انظري الى اصول الاخلاق الانجيلية مثلاً تجدي ان من لا يؤمنون بالوهمية المسيح هم في الغالب اكثر اتباعاً لها ورعاية ممن اتخذوا الايمان بتلك الألوهية مهنة لهم .

انا لا اعنى بجميع ما قلته هنا ان علم الاخلاق لا فائدة له في التربية وانما الذي اريده بهذا الكلام هو ان احسن ما يوجد بهذا العلم من الاصول في الدنيا باسرها لا ينشئ رجالاً كلة مهذبين وقد فهم ذلك حق الفهم واضموا الشرائع فعززوا مادون من تلك الاصول في الكتاب باوضاع تامة للشواب والعقاب .

ثم ان الطفل لا يستفيد مما يلقي عليه من دروس الاخلاق الا اذا كان من الاستعداد والكفاءة بحيث يقدر اسباب اعماله وعواقبها فاني له اذن ان يفهم هذا الاصل الوجداني وقد وجدته حجبته عنه ادراك مشاعره الظاهرة واشتداد اهوائه وشره غرائزه ؛ وأني له ايضاً بان يكون جميع ما يراه من الأسى والامثال من شأنه ان يأخذ بزمام غريزته الى الخير ويصرفه عن الشر ؛ وليت شعري هل تجري امه دائماً على مقتضى ما ترشده اليه من صالح الاخلاق وجميل الصفات ؛ ان الوالد ليلقي على ولده خطبة طويلة في وجوب مواساة الفقراء والاحسان الى المساكين ثم لا يلبث هو نفسه ان ان يلومه اذا اعطى لفقير درهما من القضة فهو بذلك يبذر باحدى يديه في

ذاكرته اصول الانجيل وينقش بيده الاخرى على قلبه صور النفاق والرياء . اه (*)

(١٢) من اراسم الى هيلانه في ٤ يونيه سنة ١٨٥٠

يقول علماء الاخلاق كثيراً في تربية الاطفال على قوة القدوة وتأثير الاسوة وانما في هذا موافق لهم ولكن اي والد يصح له ان يتبجح بانه على الدوام قدوة صالحة لولده .

نحن في الجملة نسعى في غش الاطفال وخذاعهم بما نترين به لهم من لباس الرياء الذي يجعلنا في اعينهم احسن مما نحن عليه في الحقيقة والواقع وبما يصدر عنا كثيراً امامهم من الاقوال والآداب المغايرة كل المغايرة لمعتقداتنا وآرائنا الذاتية . وحقيقة الامر اننا نقصد ان نربي طباعهم على ما نشأنا عليه موافقة لحسن رأينا في انفسنا ورغبة في تحقيق غيرنا بهذا الرأي وان نكسوهم من الفضائل ما نتظاهر لهم باننا متحلون به ولكن هيات ان يخذعوا بهذه الحيل ومن ظن بهم ذلك فقد اخطأ في فهم معنى سداجتهم وصفاء قلوبهم خطأ بيناً . الاطفال يعرفون كمال المعرفة ما يعمدون عليه في كشف مقاصد آبائهم والوقوف على شؤونهم وهم يدركون بالحدس والتخمين ما يجتهد هؤلاء في كتمانهم واني لفي شك من ان هذا الكتمان

(*) المنار — محصل كلامه ان تعليم الاخلاق والآداب قليل الجدوى اذا لم يترب الانسان عليها عملاً وهذا صحيح ولم توضع اصول التهذيب لأجل الدراسة وانما وضعت ليجرى عليها المربون فعلاً اقرأ قوله تعالى في وصف النبي صلى الله عليه وسلم « ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » فلم يكتف بالتعليم بل اضاف اليه التزكية وهي التربية العملية على اصول الخير والفضائل

وان حدثت اسبابه يزيدهم في نفوسهم اجلاً وتَعْظيماً .

عاقب والد ابناً صغيراً له لم يتجاوز الخامسة من عمره على اكدوبة قالها ولم يكده ينهي من عقابه حتى دخل عليه خادمه مخبراً له بان زائراً ثقيلاً ينتظره في الخارج . فقال له ذلك الرجل الوقور اخبره بانى لست هنا فياله من درس يستفيد منه الطفل الصدوق والاخلاص

انا على يقين من ان « اميل » لن يجد فيك الا احسن اسوة واكمل قدوة وهذا هو الذي يملأ قلبي اطمئناناً عليه ولكن اقول لك الحق غير مداج فيه ولا مدار وهو ان غرضي من تربيتك ان يكون ذا طبع مستقل لا مفرغ في قالب طبع آخر مهما كان لهذا الطبع من الكمال . واذكر لك هنا واقعة حضرتني الآت تدلك على انى محق في قصدي وهى انى رأيت ذات يوم طفلاً في السادسة من عمره راجعاً مع والدته من تشيع جنازة وهو من الاطفال الناجحين المتقدمين جداً على حسب اعتقاد الناس وكان يبكي او يتباكى فارتبت في امره وظننت انه مخطئ في معرفة من فجع به لان المتوفى لم يكن الا ابن عم بيده له (على ان الاطفال لا يفهمون حقيقة الموت كما تعلمين) فسأته عن سبب بكائه وكدره العظيم فكان جوابه لى ان قال « لاسبب سوى انى رأيت الآن والدتى تمسح عينها بمنديلها فبكيت » فاضحكنى منه هذا التأثير التقليدى وان كان صادراً بلا شك عن طبع ساذج وقاب سليم فلا اريد ان يكون « اميل » مثل هذا الفلام في تأثره بل اود انى متى بلغ السن الذى يرق فيه لمن تصيبه مصيبة ويمطف عليه يكون ذلك منه ناشئاً عن غم كارت الم بنفسه وحزن ممض يضطرم في قلبه

يجب ان يلحق ما يرى من اعمال الحيوانات وسيرها في حياتها بما
للقدوة من التأثير في التربية . وكيف لا ونحن نرى كتاب الامثال عندنا
على بعد مجتمعاتنا من معاهد الفطرة تزدان تأليفهم وتزدهى دروسهم بما
يودعونها من سير الحيوانات واخلاقها وان الطفل من اولادنا لا يكاد
يقدر على النطق المفهوم والحفظ حتى يحمل على حفظ اسطورة من اساطير
لافونتين (١) كأسطورة الصرصار والنملة مثلاً . انا لا انكر ان في حياة
الحيوانات عبراً كثيرة وعلوماً شتى يجب علينا تعلمها ولكني اقول الا
ينبغي لهذا العالم الصغير الذي يحفظ سير هذه المخلوقات المثلة رواية الكون
الكبرى في مشهده الاعظم ان يعرفها ليهم بشأنها اهتماماً حقيقياً . فكم
نرى من الاطفال الذين نشأوا في حواضرنا الكبرى وقرأوا اساطير ذلك
الكاتب الشهير من لم ير في حياته تلك المخلوقات التي يحكى لهم قصصها
ويمثل لهم احوالها الا قليلاً فهم على جهل تام باخلاقها وعوائدها . وفي
رأى ان سليمان (عليه السلام) اعقل من واضى التعاليم الحديثة اذ قال
فكسلان عليك بالتعلم في مدرسة النملة (٢) فانه دله بهذا الارشاد على ينابيع
علم الاخلاق الفياضة لا على حياضه التي لبعدها عن تلك الينابيع لا توجد
فيها الا صباية لا تروى ظمأ ولا تبرد غلة . اهـ

(١) لافونتين واسمه جان دول فونتين من اشهر كتاب الاساطير في فرنسا

ولد في سا توتيرى سنة ١٦٢١ ومات سنة ١٦٩٥

(٢) عبارة الامثال في هذا المعنى هي « اذهب الى النملة ايها الكسلان . تأمل

طرقها وكن حكيماً (هي) التي ليس لها قائد او عريف او متساو وتعد في الصيف طعامها

وتجمع في الحصاد اكلها . « راجع الباب ٦ من امثال سليمان والاعداد ٧ و٦ و٧ و٨